مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١١)، العدد (٢)، ص ص ٧١٥-٧٦٠ (ربيع ثاني ١٤٣٩هـ/ديسمبر ٢٠١٧م)

أثر الإيمان بالله تعالى في ترسيخ المراقبة: دراسة تحليليّة عقديّة

د. إبراهيم "محمّد خال" برقان
أستاذ مشارك في العقيدة، الجامعة الأردنيّة
كليّة الشّريعة، قسم أصول الدّين

ملخص البحث. يهدف هذا البحث إلى بيان أثر الإيمان بالله تعالى في ترسيخ المراقبة، وذلك من خلال التّعريف بكلّ من الإيمان والمراقبة عند أهل اللغة، وما اصطُلح عليه عند أهل السنّة والجماعة.. ويبرز هذا البحث حقيقة المراقبة، ويوضّح كذلك أنّ للمراقبة خمس درجات تكمن في الحياء من الله تعالى، وتعظيمه، ومحبته، والخوف منه، ورجائه.

ويناقش البحث العلاقة بين الإيمان بالله تعالى والمراقبة، ثمّ يتحدّث عن مجالات تقوية ترسيخ المراقبة وهي: النّظر في الكون، والتأمّل في أسماء الله الحسنى، وتدبّر القرآن الكريم .

كما تمّ التوصّل من خلال دراسة الموضوع إلى جملة من النتائج أهمها: أنّ مراقبة الله تعالى إذا رسخت في القلوب كان لها أكبر الأثر في توجيه سلوك الأفراد والمجتمعات توجيهًا إيمانيًّا في جميع مجالات الحياة، وضبط تصرّفاتهم في تعاملهم مع خالقهم جلّ جلاله ومع الآخرين.

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطّيبين الطّاهرين، وصحبه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فإنّ المتتبع لكتاب الله العزيز يلحظ أنّ موضوع الإيمان بالله تعالى من أكثر الموضوعات تناولاً فيه، فقد خلق الله تعالى الإنسان، وكرّمه، وفضّله على كثير من المخلوقات، وأرسل رسله عليهم السّلام إلى النّاس، ليعرفوا خالقهم، فيؤمنوا بالله الواحد الأحد، ويعبدوه حقّ عبادته كما أمرهم بذلك.

كما أنعم الله تعالى على الإنسان نعمًا لا تُعد وآلاء لا تُحصى، ولعلّ من أهمها أن زوّده بالعقل والحواس، ليستعين بها على القيام بالوظيفة التي كلّفه بها، وهي عمارة الأرض، وعبادة الله تعالى.

والإنسان في هذا الكون لا بدّ أن يتعامل مع خالقه، ومع نفسه، ومع الكون بكلّ ما فيه من إنسان، ونبات، وجماد، وحيوان، فهو لا يستطيع أن يعيش منعزلاً عن الكون بكلّ مكوّناته، فهو يحتاج إلى التّفاعل معه تفاعلاً هادفًا وتدافعًا مثمرًا، ليحقّق غاية وجوده في هذه الحياة الدّنيا، وذلك انطلاقًا من الإيمان بالله تعالى، واتّباعًا لأنبيائه ورسله عليهم السّلام.

وتكمن أسباب اختيار الموضوع في أنّ الإيمان بالله تعالى هو الرّكن الأول من أركان الإيمان السّتة كما وردت في القرآن الكريم والسنّة النّبويّة الشّريفة، وأنّ ثمّة علاقة بين الإيمان بالله تعالى والمنظومة الأخلاقيّة التي تُعدّ المراقبة من أبرزها، حيث مكث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في العهد المكيّ ثلاثة عشر عامًا يبني الصّحابة رضي الله عنهم بناء إيمانيًّا وأخلاقيًّا مؤسّسًا على الإيمان بالله الواحد الأحد، والقيم النّبيلة،

والأخلاق الفاضلة، واقتداء بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم في بنائه المجتمع الإيمانيّ، فإنّه لا بدّ من التّأكيد على خلق يعدّ غاية في الأهميّة، بل إنّه مرتكز الأخلاق الأخرى وأساسها، ألا وهو مراقبة الله تعالى أو الإحسان.

وتظهر مشكلة البحث من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

أولاً : ما حقيقة المراقبة، وما درجاتها؟

ثانيًا : ما العلاقة بين الإيمان بالله والمراقبة؟

ثالثًا : ما طرق تقوية ترسيخ المراقبة لدى العبد؟

وأمّا منهج البحث الذي استخدمته في هذا العمل، فقد اتبعت فيه المنهجين الآتيين :

أولاً : المنهج الوصفيّ : وذلك من خلال عرض أثر الإيمان في ترسيخ المراقبة.

ثانيًا : المنهج التّحليليّ : وهو القائم على تحليل أثر الإيمان في ترسيخ المراقبة، والعلاقة بينها وبين الإيمان بالله تعالى.

وأمّا بخصوص الدّراسات السّابقة، فإنّه لئن كانت هناك بعض الدّراسات القيّمة لها صلة بموضوع مراقبة الله تعالى أو الإحسان، ولكن حسب اطلاع الباحث لم يجد من أفرد هذه المراقبة ببحث عقديّ مستقل يتضمن موضوع أثر الإيمان في ترسيخ المراقبة، ويستوفي دراسته.

وقد ارتأيت في هذا الإطار بالذّات أن أخصّ بالبحث" **أثر الإيمان بالله تعالى في ترسيخ المراقبة: دراسة تحليليّة عقديّة**". ويندرج هذا العمل في سياق إبراز العلاقة بين الإيمان بالله تعالى والمراقبة من جهة، وبيان التأثير الإيمانيّ في تعزيز مراقبة الله تعالى من جهة أخرى.

ولمحاولة الإحاطة بمختلف جوانب هذا الموضوع اقتضت منهجيّتي أن أقسم البحث إلى تمهيد، وثلاثة مطالب، وخاتمة على النّحو الآتي:

التمهيد: تعريف الإيمان والمراقبة لغة واصطلاحًا.

المطلب الأول: حقيقة المراقبة ودرجاتها.

المطلب الثاني: العلاقة بين الإيمان بالله والمراقبة.

المطلب الثالث: مجالات تقوية ترسيخ المراقبة لدى العبد.

الخاتمة.

التمهيد: تعريف الإيمان والمراقبة لغة واصطلاحًا:

أولاً: تعريف الإيمان لغة واصطلاحًا:

أشار ابن فارس (ت٣٩٥هـ) إلى أنّ الإيمان يطلق في اللغة على معنيين؛ أحدهما: الأمانة وهي ضد الخيانة، والثاني: التّصديق[١]، ويراد به مطلق التّصديق سواء كان بحقّ أو باطل، كما ورد في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السّلام: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٧]، أي: وما أنت بمصدّق لنا، فكانوا غير صادقين في كلامهم مع أبيهم، وادّعائهم باطلاً وكذبًا أنّ الذئب قد أكل أخاهم يوسف عليه السّلام.

كما ورد في مختار الصّحاح أنّ لفظ الإيمان مأخوذ أيضًا من الأمان والأمَنَة بمعنى وقد أمِن من باب فهم وسلم، وأمانًا وأمَنَة من الأمن والأمان[٢].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ج١، ص١٣٣.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٢٠.

ومن الجدير بالذكر أنّ الإيمان لغة يضاف إليه التّصديق والانقياد؛ لأنّ في الإيمان قدرًا زائدًا على مجرد التصديق.

وأمّا بخصوص المعنى الاصطلاحيّ للإيمان، فإنّه يخصّص المعنى اللغويّ المراد به مطلق التصديق، ليصبح المراد به " خصوص التّصديق بخبر السّماء المنزل على الأنبياء...، أي التّصديق بالحقّ والانقياد إليه"(٣)،

وعرّف الطحاويّ (ت٣٢١هـ) الإيمان في الاصطلاح بأنّه" تصديق بالجَنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان"(٤).

ثانيًا: تعريف المراقبة لغة واصطلاحًا:

ذكر ابن فارس أنّ المراقبة مأخوذة من المصدر الثلاثيّ (رَقَبَ)، وأنّ" الرّاء والقاف والباء أصلٌ واحدٌ مطّرد، يدلّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ، من ذلك الرَّقِيب، وهو الحافِظ...، والمَرْقَب: المكان العالي يقِفُ عليه النَّاظِر"(٥).

كما ورد في المعاجم اللغويّة أنّ من معاني (رَقَبَ) الحفظ والحراسة، فالرّقيب: الحافظ الحارس، وأنّ من أسماء الله الحسنى الرّقيب، وهو الحافظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيءٌ(٦)، وراقب الله في أمره، أي: خافه، والترقّب: الانتظار(٧).

ونلحظ أنّ معاني المراقبة تدور على الحفظ، والحراسة، والمراعاة لشيء ما، والخوف من الله تعالى.

---

(٣) العقيدة الإسلاميّة، د. أحمد حقي، ص١٣.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، ص٣٣٢.

(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٢، ص٤٢٧.

(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص٤٢٤.

(٧) انظر: الصحاح، الجوهري، ج٢، ص١٥٥.

وأمّا بشأن تعريف المراقبة اصطلاحًا، فقد وردت تعريفات عديدة في تحديد معنى المراقبة اصطلاحًا منها: أنّها" استدامة علم العبد باطّلاع الرّب عليه في جميع أحواله"(٨).

وعرّف ابن القيّم (ت٧٥١هـ) المراقبة بقوله:" دوام علم العبد، وتيّقنه باطلاع الحقّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأنّ الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كلّ وقت، وكلّ لحظة، وكلّ نَفَس، وكلّ طرفة عين"(٩).

كما أشار الحكميّ (ت١٣٧٧هـ) إلى أنّ المراقبة " هو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إيّاه، واطلاعه عليه، وقربه منه"(١٠).

ويتضح لنا أنّ التّعريفات الاصطلاحيّة للمراقبة متقاربة في المعنى، وتُجمع على دوام استشعار مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن.

ومن الجدير بالذكر أنّ معنى الإحسان في الاصطلاح إذا اقترن بالإيمان والإسلام، فإنّه يشير إلى المراقبة، وحُسن الطّاعة(١١)، فإنّ مَنْ راقَبَ اللهَ تعالى أَحسَن عمَله(١٢)، وعليه فيكون معنى الإحسان اصطلاحًا في هذا الإطار هو" كمال الحضور مع الله تعالى ومراقبته، الجامع لخشيته، ومحبّته، ومعرفته، والإِنابة إِليه، والإِخلاص له ولجميع مقامات الإِيمان"(١٣).

---

(٨) التعريفات، الجرجاني، ص٢٦٦.

(٩) مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص٦٥.

(١٠) الحكمي، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، ص٢٢٤.

(١١) انظر: نضرة النّعيم، مجموعة من المختصين ، ج٢، ص٦٧.

(١٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج١٣، ص١١٤.

(١٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروز أبادي، ص٦٧١.

وقد ورد في فتح الباريّ بيان حقيقة الإحسان الموافقة في معناها الاصطلاحيّ للمراقبة، فتتحقّق في" أن يعبد المؤمن ربه كأنّه يراه بقلبه، فيكون مستحضراً ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجز عنه وشقّ عليه انتقل إلى مقام آخر، وهو أن يعبد الله على أن الله يراه، ويطّلع على سره وعلانيته، ولا يخفى عليه شيء من أمره"(١٤).

وهذا عين ما أشار إليه النّوويّ (ت٦٧٦هـ) بقوله:" اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإنّ التتميم المذكور في حال العيان إنّما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع"(١٥).

المطلب الأول: حقيقة المراقبة ودرجاتها

بيّن الغزاليّ (ت٥٠٥هـ) حقيقة المراقبة بأنّها" ملاحظة الرقيب، وانصراف الهمّ إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنّه يراقب فلانًا، ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب، أمّا الحالة، فهي مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إيّاه، وانصرافه إليه، وأمّا المعرفة التي تثمر هذه الحالة، فهي

(١٤) فتح الباري، ابن حجر، ج١، ص١٩٣.

(١٥) شرح صحيح الإمام مسلم، النووي، ج١، ص١٥٨.

العلم بأنّ الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كلّ نفس بما كسبت"[١٦].

ويمكن القول في حقيقة المراقبة بأنّها نوع من المعرفة تتمثّل في العلم بأنّ الله تعالى مطلع على الظاهر والباطن، وأنّه يعلم السّر وأخفى، وإذا كانت هذه المعرفة يقينيّة فإنّها تستولي على القلب لتنشئ مراقبة الله تعالى التي يُراعى فيها عدم الالتفات إلا إليه، لتثمر هذه المراقبة الأعمال الصّالحة لدى العبد، وإذا تحقّقت هذه المراقبة كان صاحبها من المقرّبين عند الله تعالى.

وأمّا بخصوص درجات المراقبة، فانطلاقًا من حقيقة المراقبة يمكن القول بأنّها تنقسم إلى خمس درجات:

الدّرجة الأولى: الحياء من الله تعالى:

أشار الزّجّاج (ت٣١١هـ) عند بيان معنى اسم الله تعالى الرّقيب إلى أنّ المراقبة هي الاستحياء، وأنّ الحياء نوع من التحفّظ[١٧].

وتتمثّل هذه الدّرجة في مراقبة قوم غلب عليهم اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وقلوبهم، ولا يخفى عليهم أنّ الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، ولا يغيب عنهم أنّه تعالى لا تخفى عليه خافية، فيرون الله في الدنيا مطلعًا عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة، فغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة[١٨].

---

(١٦) إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٣٩٨.

(١٧) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزّجّاج، ص٥١.

(١٨) انظر: إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٣٩٩.

وأوضح ابن القيّم أنّ هذه الدّرجة من المراقبة" توجب صيانة الباطن والظاهر، فصيانة الظاهر تكون بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن تتحقّق بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرّد الباطن من كلّ شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كلّ إرادة تعارض إرادته، ومن كلّ محبة تزاحم محبته، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به"(١٩).

ويبيّن هذا الحديث النبويّ الشّريف حقيقة الحياء الذي يقود إلى مراقبة الله تعالى، فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :" استحيوا من الله حقّ الحياء، قال: قلنا: يا رسول الله، إنّا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حقّ الحياء؛ أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء"(٢٠).

وتدفع هذه الدّرجة المسلم إلى مراقبة الله تعالى عند الشّروع في العمل بإخلاص النيّة لله تعالى، وكذلك مراقبته تعالى عند ملابسته العمل، فعندئذ" يراقب جميع حركاته، وسكناته، وخطراته، ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران؛ نظر قبل العمل، ونظر في العمل، أمّا قبل العمل، فلينظر أنّ ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصّة، أو هو في هوى النّفس ومتابعة الشيطان، فيتوقف فيه، ويتثبت...، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله، وانكفّ عنه، ثمّ لام نفسه على رغبته فيه، وهمّه به، وميله إليه، وعرّفها سوء فعلها"(٢١).

---

(١٩) مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص٦٨.

(٢٠) قال الألباني فيه: حديث حسن. سنن الترمذي، الترمذي، باب رقم ٢٤، حديث رقم ٢٤٥٨، ج٤، ص٦٣٧.

(٢١) إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٤٠٠.

ويؤكّد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّه قال: قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ"[٢٢].

ويفيدنا هذا الحديث الشّريف أنّ ترك المعصية حياء من الله تعالى، ومجاهدة النّفس الأمّارة بالسّوء، وعصيان الهوى سبب في أنّها تُكتَب حسنة، وكذلك الهمّ الذي لا يُكتب، فهو الخواطر التي لا توطّن النّفس عليها، ولا يصحبها عقد ولا نيّة وعزم، وأمّا مَن عزم على المعصية بقلبه، ووطّن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه، فيُكتَب هذا العزم سيئة، وليست السيئة التي همّ بها؛ لكونه لم يعملها وقطعه عنها قاطع غير خوف الله تعالى والإنابة، لكن الإصرار والعزم معصية، فتُكتب معصية، فإذا عملها كتبت معصية ثانية، فإن تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة كما في الحديث" إنّما تركها من جراي"[٢٣].

الدّرجة الثانية: التّعظيم والإجلال:

وهي مراقبة الله تعالى على أساس من التعظيم والإجلال، حيث يصير القلب منكسرًا لهيبة الله تعالى، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى غيره تعالى[٢٤]، فيمتلأ القلب

---

(٢٢) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كُتبت وإذا همّ بسيئة لم تُكتب، حديث رقم١٢٩، ج١، ص١١٧.

(٢٣) شرح صحيح الإمام مسلم، النووي، ج٢، ص١٥١.

(٢٤) انظر: إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٣٩٨.

من عظمة الله عز وجلّ، بحيث يصرفه ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه، وإنّه كلّما ازداد قربًا من الله تعالى ازداد له تعظيمًا، وبعدًا عن الخلق، وفرحة وسرورًا ؛ الأمر الذي يدفعه إلى دوام السير إلى الله عز و جل، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته[٢٥]، فتصبح الجوارح مستعمَلة جارية على السّداد والاستقامة من غير تكلف[٢٦]، ويكون الخُلُق القويم إلفًا من مألوفات المسلم، والسّلوك المستقيم طبعًا من طباعه.

ويوضّح هذا الحديث الشّريف هذه الدّرجة من المراقبة :

يروي ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : " بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ

(٢٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص ص٦٦-٦٧.

(٢٦) انظر: إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٣٩٨.

دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِي، فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِي"[٢٧].

ونلحظ من هذا الحديث الشّريف أنّ لزوم المراقبة كانت سببًا في تفريج كربة أصحاب الغار، حيث تقرّبوا إلى الله تعالى، وتوجّهوا إليه بالدّعاء متوسلين بصالح أعمالهم، وأزكاها، وأخلصها، وأوثقها، وأفضلها، وهذا كلّه لا يتأتّى إلا بالمراقبة الحقّة.

وتُعرف اختلاف هاتين الدّرجتين، وتتضح صورتهما من خلال المشاهدات اليوميّة، فمثلاً تكون في خلوتك، فيدخل عليك صبيّ أو امرأة، فتعلم أنّه مطلع عليك، فتستحيى منه، فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك أمامه، ولا يكون هذا الفعل على أساس الإجلال والتعظيم، بل يكون من باب الحياء، فإنّ مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك، فإنّها تدفعك إلى الحياء[٢٨].

---

(٢٧) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، حديث رقم٢٧٤٣، ج٤، ص٢٧٤٣.

(٢٨) انظر: إحياء علوم الدّين، الغزاليّ، ج٤، ص ص٣٩٩-٤٠٠.

وفي مشهد آخر قد يدخل عليك مسؤول كبير، فإذا بك تترك كلّ ما أنت فيه من الأعمال والأفكار من أجله، فيستولي عليك وعلى وقتك، فيستغرقك التعظيم حتى تترك كلّ ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، وغالبًا ما يكون هذا من باب التعظيم والإجلال، وليس من باب الحياء، وهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى(٢٩).

الدّرجة الثالثة: محبّة الله تعالى:

وتقوم هذه المراقبة على محبّة الله تعالى، وتكمن أهميّة هذه الدّرجة في أنّها تنمّي المراقبة في النّفس الإنسانيّة، فيجد صاحب هذه المراقبة حلاوة الإيمان التي لا يشعر بها إلا هو.

وأمّا مَن لم يجد تلك المحبّة لله تعالى،" فليتهم إيمانه وأعماله فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان".(٣٠) قال الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم:" ثلاث مَن كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النّار"(٣١).

وتثمر المراقبة القائمة على محبة الله تعالى أعمالاً للعبد يبتغي بها وجه الله تعالى، فيُقدم عليها بكلّ إخلاص، ومن غير تقصير فيها، فقد ذكر ابن القيّم أنّه سمع من شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ما يؤكّد فيه أنّ السرور بالله، وقربه، وقرة العين به تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجدّ في السير

---

(٢٩) انظر: المصدر ذاته، ج٤، ٤٠٠.

(٣٠) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص٦٧.

(٣١) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم٤٣، ج١، ص٦٦.

إليه، فقال: " إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الربّ تعالى شكور، يعني أنّه لابدّ أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح، وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول"(٣٢).

الدّرجة الرابعة: الخوف من الله تعالى:

إنّ الخوف من الله تعالى يقوي مراقبته على أكمل وجه، فيكون ذلك الخوف سببًا في الابتعاد عن المعاصي، والإقبال على الطاعات.

ويؤكّد هذا الحديث الشّريف هذه الدّرجة من المراقبة، فيروي أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".(٣٣)

وممّا يشير إليه هذا الحديث الشّريف الحث على دوام المراقبة، فبيّن كيف أنّ هذه المراقبة القويّة الخالصة لله تعالى كانت سببًا في امتناع الرّجل عن الزّنا بالمرأة ذات المنصب والجمال التي دعته إلى ذلك، فكان خوفه من الله تعالى هو الذي شغله عن لذّات الدنيا وشهواتها، وكذلك الرجل الذي تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، وهذا في صدقة التطوع فالسّر فيها أفضل؛ لأنّه

---

(٣٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص٦٨.

(٣٣) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم١٠٣١، ج٢، ص٧١٥.

أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء، وذكر اليمين والشمال مبالغة في الإخفاء والاستتار بالصدقة، وأمّا الرّجل الذي استشعر مراقبة الله تعالى له حين ذكره خاليًا في السّر لكمال الإخلاص فيها، ففاضت عيناه خشية من الله تعالى(٣٤).

وكذلك يُستشهد في هذا السّياق بالأثر الذي رواه عبد الله بن دينار قائلاً: "خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرّسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إنّي مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه، ثمّ غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة"(٣٥).

الدّرجة الخامسة: رجاؤه تعالى :

ويقصد بالرّجاء " الطمع في ما يمكن حصوله"(٣٦)، وأمّا رجاء الله تعالى، فهو طمع العبد في ما يمكن حصوله من الله تعالى، وحُسن الظنّ به.

ويزيد رجاؤه تعالى استحضار العبد مراقبة خالقه، ليرتقي بإيمانه، فيحمله على امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، ويتجلى ذلك في حالتين: الأولى: حالة مَن يعمل الأعمال الصّالحة، ويبتغي بها وجه الله تعالى، فهو يرجو منه قبولها، وإثابته عليها. والثانية: حالة من يقترف السيئات، ثمّ يتوجّه إلى الله تعالى بإنابة صادقة، ويرجو أن يتوب عليه، ويغفر له، ويعفو عنه.

---

(٣٤) انظر: شرح صحيح الإمام مسلم، النووي، ج٧، ص ص١٢٠-١٢١.

(٣٥) إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ٣٩٨.

(٣٦) الكليات، الكفوي، ص٧٣٦.

قال الله تعالى: " **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**" [سورة الزمر، الآية٥٣].

وقد حثّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على الرّجاء وحُسن الظنّ بالله تعالى، فقال: " أنا عند حُسن ظن عبدي بي، وأنا معه حيث ذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومَن تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا، ومَن تقرّب إليّ ذراعًا تقرّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه أهرول"[٣٧].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النّبي صلى الله عليه وسلّم قبل وفاته بثلاث يقول: " لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظنّ عزّ وجلّ"[٣٨].

المطلب الثاني: العلاقة بين الإيمان بالله والمراقبة

إنّ ثمّة علاقة بين الإيمان بالله تعالى والمراقبة " تغدو شبيهة بأن تكون علاقة تلازم تربط الطّرفين، بحيث يكون تحقّق الملزوم وهو الإيمان مفضيًّا إلى تحقّق اللازم[وهو المراقبة]، وذلك ما يوفّر في سبيل الدّعوة إلى الله منهجًا فاعلاً في النّفوس، وهو ما يتمثّل في الدّخول إليها في سبيل التحقّق بالله من بيان ما ينشأ عن ذلك التحقّق الإيمانيّ من سعادة في الحياة العمليّة، وذلك من باب الاستدلال باللازم على الملزوم، فيُبتغى الملزوم من طريق ابتغاء اللازم"[٣٩].

---

(٣٧) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم٢٦٧٥، ج٤، ص٢٠٩٩.

(٣٨) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم٢٨٧٧، ج٤، ص٢٢٠٥.

(٣٩) الإيمان بالله وأثره في الحياة، عبد المجيد النجار، ص١٦٥.

وانطلاقًا من ذلك، فإنّ المراقبة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بطبيعة الإيمان بالله عند المؤمن، فإذا كان الإيمان ضعيفًا أو معدومًا، فإنّ المراقبة ستكون ضعيفة أو معدومة، فعندئذ لا يبالي المرء بارتكاب كثير من المخالفات الشرعيّة، أو القيام بأفعال على أساس أنّها وظيفة مطلوبة خالية من روح التشريع، وأمّا إذا كان الإيمان قويًّا، فإنّ المراقبة ستكون عندئذ قويّة ودائمة، وتوجّه العبد إلى امتثال ما يرضي الله تعالى، والابتعاد عن ما يسخطه تعالى.

ويمكن وصف هذه العلاقة بين الإيمان والمراقبة بأنّها علاقة عموم وخصوص، فالإيمان هو الأعم، والمراقبة هي الأخص، حيث تمثّل المراقبة درجة خاصّة من درجات الإيمان، فكلّ مراقبة هي إيمان، وليس كلّ إيمان مراقبة.

فإيمان الإنسان بالله تعالى له أثر كبير في توجيه أفعاله وأقواله؛ لأنّ الإيمان إذا استقرّ في النّفوس" أصبحت مستعدّة للتلقي وللتنفيذ في الشّرائع والأعمال، ولذلك نجد القرآن دائمًا يربط بين العقيدة والتّشريع في كلّ آياته، وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول تعالى في مسائل التّحريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٨][٤٠]، فبدأ بالإيمان وبه ختم، ليحفّز المؤمنين على اجتناب هذا النّهي.

ويؤيّد هذه العلاقة القائمة بين الإيمان بالله تعالى والمراقبة العديد من الآيات القرآنيّة الكريمة والأحاديث النّبويّة الشّريفة منها:

- قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥]، فالمراقبة مبنيّة على معرفة بالله، وعلم بأنّه تعالى يعلم ما في نفوس عباده، وعلم بأنّه سبحانه غفور رحيم، وسياق الآية

(٤٠) عقيدة التوحيد، محمد الملكاوي، ص٣٤.

الكريمة في الطلاق، يدلّ على أنّه من الأمور التي تحتاج إلى تقوى الله تعالى، ومراقبته في السّر والعلن.

- قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [سورة الزخرف، الآية ٨٠]، فيحسبون بجهلهم وظلمهم أنّ الله تعالى لا يسمع سرّهم الذي لم يتكلموا به، ولا نجواهم كذلك أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، فلمّا انعدمت عندهم هذا المراقبة أقدموا على المعاصي، وظنّوا أنّها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها، فردّ اللّه عليهم بأنّه تعالى يعلم سرهم ونجواهم، وملائكته عليهم السّلام يكتبون ذلك عليهم، حتى يردّوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحدا[٤١].

- قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق، الآية: ١٨]، فيخبر الله تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وأنّه محيط بعمله وجميع أموره، حتى إنّه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وهذا يستوجب منهم دوام المراقبة لله تعالى في أعمالهم[٤٢].

- قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الحديد: الآية٤]، فاستحضار القلب لعظمة الله تعالى، وإحاطة علمه؛ ممّا يقوي المراقبة في الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

---

(٤١) انظر: تفسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص٧٧٠.

(٤٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٧، ص٣٩٨.

– قوله صلّى الله عليه وسلّم: " إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ"(٤٣).

– قوله صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الذي يرويه ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد حتى جلس إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، قال: فأخبرني عن السّاعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثمّ انطلق، فلبثت مليًّا، ثمّ قال لي: يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"(٤٤).

---

(٤٣) الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم٢٥٦٤، ج٤، ص١٩٨٦.

(٤٤) الجامع الصحيح، الإمام مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم٨، ج١، ص٣٦.

ونلحظ في هذا الحديث الشّريف إشارة إلى أنّ ثمّة علاقة بين الإيمان بالله تعالى والمراقبة، وهو الذي أطلق عليه النّبي صلّى الله عليه وسلّم مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، فالإيمان الصّادق بالله تعالى يفعّل مراقبة الله تعالى؛ حيث يستحضر العبد قرب الله تعالى، واطلاعه عليه، فيعبده كأنّه يراه، ويخلص له في العبادة، ويحرص على الاستزادة منها، ويجتهد في أدائها على أكمل وجه وأتمّه.

يقول النّوويّ في هذا النّطاق: " لو قدرنا أنّ أحدنا قام في عبادة، وهو يعاين ربّه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا ممّا يقدر عليه من الخضوع، والخشوع، وحسن السّمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به"(٤٥).

– ويروي ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رجلاً أتى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال يا رسول الله: حدثني بحديث واجعله موجزًا، فقال له النّبي صلّى الله عليه وسلّم: صلِّ صلاة مودّع، فإنّك إن كنت لا تراه، فإنّه يراك، وأيَس ممّا في أيدي النّاس تكن غنيًّا، وإيّاك وما يُعتذر منه"(٤٦).

وإذا قويت مراقبة الإنسان بقوة إيمانه بالله تعالى كان لها تأثير في حياة الإنسان أقوى من تأثير القانون أو أيّ رادع من المجتمع، فهو دائم الاستحضار لتلك المراقبة التي تدفعه إلى أن يستوي عنده العمل في السّر والعلن؛ لأنّها منطلقة من الإيمان الله تعالى، ومستندة إلى الجزاء يوم القيامة.

---

(٤٥) شرح صحيح الإمام مسلم، النووي، ج١، ص ص١٥٧_١٥٨.

(٤٦) المعجم الأوسط، الطبراني، باب من اسمه عبد الله، ج٤، ص٣٥٨. قال الألباني بعد أن أورد هذا الحديث برقم١٩١٤: " صحيح بشواهده". السلسلة الصحيحة، الألباني، ج٤، ص٥٤٤.

وإذا لم يستند القانون إلى العقيدة، فإنّه سيفقد القوة الرّوحيّة التي يترتّب عليها احترامه وعدم مخالفته، فهو لن يضبط السّلوك الإنسانيّ عندئذ، لإمكانيّة التّحايل أو الهرب من العقوبة؛ لأنّ سلطانه دنيويّ جسديّ، بينما سلطان العقيدة روحيّ أخرويّ، وهذا يبرز قيمة الإيمان بالله تعالى كدافع نفسيّ وباعث روحيّ لأن يسلك الفرد السّلوك القويم والخلق الصّحيح، فلا يخالف بعمله إيمانه وعقيدته(٤٧).

وهكذا نلحظ ممّا تقدّم أنّ الإيمان بالله تعالى" يورث في النّفس استشعارًا للرّقابة الدّائمة التي تحصي على الإنسان كلّ حركة من حركاته، وكلّ خاطرة من خواطره، إذ إنّ الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، وهذه الرّقابة الإلهيّة التي يستشعرها المؤمن إذا ما اقترنت بالإيمان بما يترتّب عليها من قِبل الله تعالى من ثواب وعقاب على كلّ الأعمال، أصبحت مرشدًا لتلك الأعمال توجّهها لما فيه الثواب، وهي الخيرات منها، وتجنّبها ما فيه العقاب، وهي الشّرور والآثام المنغّصة للحياة الدّنيا قبل أن تنغّص الحياة الآخرة"(٤٨).

المطلب الثالث: مجالات تقوية ترسيخ المراقبة لدى العبد:

تُعدّ معرفة الله تعالى الأساس في الإيمان بالله تعالى، بل في جميع مسائل الإيمان، فهي نقطة البداية، وعنها تتفرّع سائر الأمور الإيمانيّة؛ لأنّ الحقائق الكونيّة كلّها إنّما هي من آثار قدرة الله تعالى وإرادته وعلمه، ولن تدرك العقول هذه الحقائق المتفرّعة قبل أن تعرف خالقها(٤٩).

---

(٤٧) انظر: عقيدة التوحيد، محمد الملكاوي، ص ص٣٣-٣٤.

(٤٨) الإيمان بالله وأثره في الحياة، عبد المجيد النجار، ص١٩٤.

(٤٩) انظر: العقيدة الإسلاميّة، د. أحمد حقي، ص٤٨.

وكلّما زادت معرفة الإنسان بربّه زادت مراقبته له تعالى، وقوي إيمانه؛ لأنّ الإيمان كما هو معلوم يزيد وينقص، كما أنّ المراقبة ترتبط بالإيمان قوّة وضعفًا، فإذا زاد الإيمان قويت المراقبة، وإذا نقص الإيمان ضعفت المراقبة، فالمراقبة القويّة دليل على قوّة الإيمان، حيث تنطلق منه، وتمضي معه، فكلّما زاد المؤمن في إيمانه ترقّى في مراقبته لله تعالى.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [**سورة** فاطر، الآية: ٢٨]، فإذا زادت معرفتنا بالله تعالى زادت خشيتنا له، وقوي استشعارنا برقابة الله تعالى لنا، وهذا ليس خاصًّا بالعلماء فحسب، بل يشمل المؤمنين أيضًا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٢].

والرّاسخون في العلم من جملة المؤمنين، وخصّهم الله تعالى بالذكر، وقدّمهم على عامّة المؤمنين تنويهًا بعلمهم الرّاسخ، ومعرفتهم القويّة، وقد ربط القرآن الكريم بين العلم والتّقوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢].

ويشير الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى ذلك الربط بين العلم والتّقوى، ببيان أنّه بمقدار معرفة الإنسان بربّه تعالى تزداد خشيته لله تعالى، وتعظيمه إيّاه؛ ممّا يزيد من مراقبته لله تعالى، تقول أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أمرهم بعمل من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنّا لسنا كهيئتك يا رسول

الله، إنّ الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يُعْرَف الغضب في وجهه، ثمّ يقول: إنّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا"(٥٠).

ونقل الغزالي في كتابه" إحياء علوم الدّين" العديد من الآثار وأقوال العلماء في بيان هذه العلاقة بين المعرفة والتّقوى والمراقبة، أذكر منها:

أنّه سُئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [سورة البيّنة، الآية٨]، فقال: معناه: ذلك لمن راقب ربّه عزّ وجلّ وحاسب نفسه، وتزوّد لمعاده. وقال أبو عثمان المغربيّ: أفضل ما يُلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة، والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطّاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرُنا هذا مبني على أصلين: أن تُلزم نفسك المراقبة لله عزّ وجلّ، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممّن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممّن يملك العقوبة(٥١).

وأساس الإيمان بالله تعالى معرفته، حيث تؤدي هذه المعرفة إلى تعظيم الله تعالى وخشيته، وتورث محبّته والانقياد له تعالى، بما ينعكس على الإنسان سعادة في الدنيا بانتظام معاشه وصلاح أحواله، وفي الآخرة بالفوز بالجنّة.

وأكّد ابن القيّم ذلك بقوله:" مراقبة الأزل أي شهود معنى الأزل، وهو الأول الذي ليس قبله شيء، فمتى طالع العبد عين هذا السبق شهد معنى الأزل وعرف حقيقته، فبدا له حينئذ علم التوحيد، وهو شهود انفراد الحق بأزليته وحده، وأنّه كان

---

(٥٠) الجامع المسند الصحيح، الإمام البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: أنا أعلمكم بالله، وأنّ المعرفة فعل القلب، حديث رقم٢٠، ج١، ص١٦.

(٥١) انظر: إحياء علوم الدّين، الغزالي، ج٤، ص ص٣٩٧-٣٩٨.

ولم يكن شيء غيره ألبتة، وكلّ ما سواه فكائن بعد عدمه بتكوينه، وهذا الشهود متعلق بأسمائه، وصفاته، وتقدّم علمه بالأشياء، ووقوعها في الأبد مطابقة لعلمه الأزليّ، فهذا الشهود يعطي إيمانًا، ومعرفة، وإثباتًا للعلم والقدرة والفعل والقضاء والقدر، وكذلك مراقبة الإخلاص من ورطة المراقبة من خلال مراقبة مواقع رضى الربّ ومساخطه في كلّ حركة"(٥٢).

ولّما كانت المعرفة فعل القلب، فينبغي أن لا تقتصر معرفة العبد بربّه تعالى على الإيمان بالله تعالى أي بمعنى تصديق القلب بوحدانيّة الله تعالى في ربوبيّته، وألوهيّته، وأسمائه، وصفاته، بل تتعداه لتشمل العمل المصدّق لذلك الاعتقاد؛ وذلك من أجل تقوية مراقبة الله تعالى سرًا وعلانيّة.

ولكي يرقى العبد بمراقبته لله تعالى ينبغي عليه عدم " التوقّف عند الاعتقاد بوحدانيّة الله تعالى ذاتًا وصفات وأفعالاً فحسب، بل يتبع هذا الاعتقاد حقّه من التّسليم المطلق لله والخضوع والطّاعة والانقياد التّام، وعدم صرف شيء من العبادات القوليّة والفعليّة والماليّة والقلبيّة لغيره سبحانه؛ لأنّ التّوحيد ليس كلمة تقال باللسان دون أن تستقر في القلب، وتظهر آثارها على الإنسان في منهج كامل للحياة يبدأ من الاعتقاد الصّحيح، وينتهي بتنظيم شامل لحياة الفرد والجماعة"(٥٣).

وتتجلّى تقوية ترسيخ المراقبة لدى العبد في المجالات الآتية:

أولاً: النّظر في الكون:

لفت الله تعالى الأنظار إلى التفكّر في مخلوقاته، والتدبّر في بديع صنعه، ليقود الإنسان إلى الاعتراف بوجود الله تعالى، لذا نجد القرآن الكريم أكّد على النّظر والتفكّر

---

(٥٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص ص٧٣-٧٤.

(٥٣) عقيدة التوحيد، محمد الملكاوي، ص١٢٨.

في آيات عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران، الآية١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: الآية٢١]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [سورة الغاشية، الآية١٧].

يقول ابن القيّم في هذا الإطار: " وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع: الأول: الفكرة في آياته المنزلة، وتعقلها، وفهمها، وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرّد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة، قال بعض السلف: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً. الثاني: الفكرة في آياته المشهودة، والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه، وصفاته، وحكمته، وإحسانه، وبرّه، وجوده، وقد حثّ الله سبحانه عباده على التفكّر في آياته، وتدبّرها، وتعقلها، وذمّ الغافل عن ذلك. الثالث: الفكرة في آلائه، وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النّعم، وسعة مغفرته ورحمته وحلمه، وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله، ومحبته، وخوفه، ورجاءه، ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة"(٥٤).

وفي المقابل فقد ذمّ القرآن الكريم أولئك الذين لم يعقلوا أسباب الهداية، ولم ينتفعوا بحواسهم في الاستدلال على الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ

(٥٤) الجواب الكافي، ابن القيم، ص١٠٨.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية١٧٩]، فأشار الله تعالى إلى أنّهم عطّلوا أعمال جوارحهم، وذلك" بترك استعمالها في أهمّ ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبديّ، ويدفع به الضرّ الأبديّ؛ لأنّ آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلمّا لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة"(٥٥).

ثمّ يأتي بعد الاعتراف بوجود الله تعالى الإقرار بأنّ الله عز وجلّ هو الربّ الخالق الرّازق المحيي المميت النّافع الضّار بيده كلّ شيء، وهو ما يُعرَف بتوحيد الرّبوبيّة، الذي يستلزم توحيد الألوهيّة، وإفراد الله تعالى بالعبادة، ونفيها عن غيره، وإثباتها له وحده. وأكّد الله تعالى هذه المعرفة بقوله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [سورة محمّد، الآية: ١٩].

وإذا أمعن الإنسان النّظر في الكون، فإنّه سيدرك أنّ لهذا الكون خالقًا له، ومدبّرًا لأموره، ومتصرّفًا في شؤونه، كما أنّه يعلم أنّ الله تعالى هو المعبود وحده، ولا معبود سواه؛ الأمر الذي سيزيد الإنسان معرفة بالله تعالى، ويقينًا به، وإخلاصًا في عبادته، وصدقًا في التوجّه إليه، وانقيادًا له، وعندئذ ستقوى المراقبة في قلب المؤمن، وتكون حاضرة على الدّوام.

ويُعدّ النّظر في آيات الله تعالى الكونيّة، والتفكّر في مشاهدها، واستشعار عظمة الخالق، واستحضار خشيته، من أهمّ وسائل تفعيل مراقبة الله تعالى؛ لأنّ في ذلك ترسيخ العقيدة وتقويّة الإيمان، فعندما يعلم المؤمن" أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء، فيرعوي، ويجانب المعصية...، وعندما يوقن أنّ الله هو النّافع

(٥٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٨، ص٣٥٩.

الضّار فلا يخشى أحدًا إلا الله، وعندما يعلم أنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين، فلا يطلب الرّزق من غيره، وهكذا يترك الإيمان أثرًا بالغًا في العقل، والنّفس، والوجدان، والسّلوك"(٥٦).

إذًا، فالله تعالى يأمرنا بالتفكّر في حقائق الكون، والنّظر في آيات الخلق التي تشير إلى وحدانيّته، وربوبيّته، وألوهيّته من أجل مقصد عظيم، ألا وهو زيادة الإيمان، وتثبيت العقيدة، وتقويّة المراقبة، فكلّما التقينا على الإيمان ارتقينا بالمراقبة، وبالتّالي سينعكس ذلك كلّه على أعمالنا وأقوالنا.

وقال عامر بن عبد قيس في هذا النّطاق: سمعت غير واحد، ولا اثنين، ولا ثلاثة من أصحاب النّبي صلّى الله عليه وسلّم يقولون: إنّ ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكّر. وقال أيضًا بِشْر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه(٥٧).

ومن هنا يتبيّن لنا ضرورة" التّذكير الدائم بعظمة الله تعالى، وآيات قدرته في الآفاق وفي النّفس، حتى يخشع القلب ويستسلم، والتّذكير بأنّ الله مع الإنسان يراقبه، ويحصي عليه أعماله، ثمّ يحاسبه يوم القيامة، حتى تصبح تقوى الله جزء لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة في حالة السرّاء والضرّاء، ففي السرّاء يذكر الله شاكرًا لأنعمه، وفي الضرّاء يذكر الله صابرًا، ومتطلّعًا إليه سبحانه ليكشف عنه السّوء"(٥٨).

---

(٥٦) أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانيّة، د. أحمد حقي، ص ص ٥١-٥٢.

(٥٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٢، ص١٨٥.

(٥٨) العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، عثمان ضميرية، ص٦١.

ثانيًا: التأمّل في أسماء الله تعالى الحسنى:

لقد عرّفنا الله تعالى بنفسه، وأثبت له من الأسماء الحسنى ما تنظّم العلاقة بين الإنسان وخالقه، فكان الإيمان بها هو أساس الإيمان بالله تعالى، وذلك لتعلّقها به سبحانه، ودلالتها على ذاته، وصفاته، وأفعاله، حيث يشرف المتعلَّق بشرف المتعلِّق به، وقد أشار ابن العربيّ المالكي (ت٥٤٣هـ) إلى ذلك بقوله: " إنّ حَسْبها شرفُ العلم بها، فإنّ شرف العلم بشرف المعلوم، والباري أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم"(٥٩).

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية١٨٠]، وقال صلّى الله عليه وسلّم: " إنّ لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنّة"(٦٠).

ونقل ابن حجر (ت٨٥٢هـ) عن البخاريّ (ت٢٥٦هـ) أنّ معنى الإحصاء الوارد في هذا الحديث الشريف هو الحفظ، كما أنّه ذكر قولاً للخطّابيّ في معنى الإحصاء أنّه يحتمل وجوهًا منها: أن يعدّها المسلم حتى يستوفيها، فيدعو بها كلّها، وأن يطيق القيام بحقّ هذه الأسماء، ويعمل بمقتضاها(٦١).

وانطلاقًا من معاني إحصاء أسماء الله الحسنى، فيمكن القول بأنّ ثمّة علاقة بينها وبين المراقبة، وقد أشار إلى تلك العلاقة ابن القيّم بقوله: " المراقبة هي التعبّد

---

(٥٩) أحكام القرآن، ابن العربيّ، ج٤، ص٣.

(٦٠) الجامع المسند الصحيح، الإمام البخاريّ، كتاب التوحيد، باب إنّ لله مائة اسم إلا واحدًا، حديث رقم ٦٩٥٧، ج٦، ص٢٦٩١.

(٦١) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ج١١، ص ص٢٢٥-٢٢٦.

باسمه الرّقيب الحفيظ العليم السميع البصير، فمَن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها: حصلت له المراقبة"(٦٢).

وهكذا، فإنّ الإيمان بأسماء الله تعالى الحسنى، والإحاطة بمعانيها، والعمل بمقتضاها، والدّعاء بها، وبالأخصّ ما يتعلّق منها بالمراقبة: الرّقيب، والحفيظ، والعليم، والسّميع، والبصير، تقوي المراقبة؛ وتورث استحضارها؛ لأنّ " قيام المحبة لله في القلب مع الخوف والرجاء، لا يكون إلا بمعرفة الله، وذلك لا يكون إلا بالتفكّر والتعلّم لما دلّت عليه أسماء الله الحسنى من المعاني، واستشعار القلب لذلك"(٦٣).

يقول ابن القيّم في هذا الإطار:" والتعرّفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبّتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبّدهم له بأسمائه الحسنى، إذ كلّ اسم فله تعبّد مختص به علمًا ومعرفة وحالاً، وأكمل النّاس عبوديّة: المتعبّد بجميع الأسماء والصّفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبوديّة اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبّد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبوديّة اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبوديّة اسمه الرّحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم، أو التعبّد بأسماء التودّد والبرّ واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، ونحو ذلك"(٦٤).

ومن الضروريّ التعرّف على هذه الأسماء الحسنى المرتبطة بالمراقبة مباشرة، وهي: الرّقيب، والحفيظ، والعليم، والسّميع، والبصير ، وذلك من خلال الوقوف على معانيها، وآثارها في المراقبة على النّحو الآتي:

---

(٦٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢، ص٦٦.

(٦٣) أثر الإيمان في تحصين الأمّة الإسلاميّة ضد الأفكار الهدّامة، عبد الله الجربوع، ص٤١٤.

(٦٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ج١، ص ص٤١٩-٤٢٠.

- الرّقيب:

عرّف الزّجّاج (ت٣١١هـ) اسم الله تعالى الرّقيب بأنّه الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو تعالى لا يغيب عمّا يحفظه(٦٥).

كما بيّن البيهقيّ (ت٤٥٨هـ) أنّ اسم الرّقيب يعني" هو الذي لا يغفُل عمّا خلق فيلحقه نقص، أو يدخل عليه خلل من قِبَل غفلته عنه"(٦٦).

وقد ورد في القرآن الكريم ما يُثبت أنّ الله تعالى رقيب على عباده، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [سورة النّساء، الآية: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٥٢].

ومقتضى أثر الاسم على العبد دوام التوجه إلى الله ظاهرًا وباطنًا، فيراقب الله تعالى ويسأله أن يرعاه في مراقبته، والمراقبة في نفسها التي تورث صاحبها، وتكمل له الاسم، ويستحق أن يسمى مراقبًا، دوام علم القلب علمًا لازمًا له بعلم الله تعالى في سكونك وحركتك(٦٧).

وهكذا فإنّ أهمّ آثار الإيمان باسم الله تعالى الرّقيب تتجلى في صلاح الأعمال، واستقامة السّلوك، فمَن علم أنّ الله تعالى رقيب عليه، ومطلع على ظاهره وباطنه، ومراقب لحركاته وسكناته، وراصد لأعماله وأقواله، فإنّه سيتقي الله تعالى في سرّه وعلانيّته، فيمتثل أوامره، ويبتعد عن نواهيه، تعظيمًا له، واستحياء منه، وخوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

---

(٦٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزّجّاج، ص٥١.

(٦٦) الأسماء والصفات، البيهقي، ج١، ص١٩٤.

(٦٧) انظر: أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، محمود الرضواني، ج٢، ص٤٩٨.

- الحفيظ:

ويقصد باسم الله تعالى الحفيظ أنّه العليم المهيمن الرقيب على خلقه، وهو الحفيظ الذي يحفظ أعمال المكلفين، والذي شرَّف بحفظها الكرام الكاتبين، ويضعون الأجر كما حُدد لهم بالحسنات والسيئات، وهو الحفيظ الذي يحفظ عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم لتشهد عليهم يوم القيامة، وهو الحفيظ لمن يشاءُ من الشَّرِّ والأذى والبلاء(٦٨).

وكذلك الحفيظ هو الذي يحفظ أهل التّوحيد والإيمان، ويعصمهم من الهوى، ويحول بين المرء وقلبه من الوقوع في العصيان، ويهيأ الأسباب لتوفيقه إلى الطاعة والإيمان، والحفيظ أيضا هو الذي حفِظ السماواتِ والأرضَ بقدرته، ويحفظ مخلوقاته، فيبقيها على حالها لغاياتها، ويربط العلل بمعلولاتها، ويحفظ الأشياء بذواتها وصفاتها(٦٩).

وورد اسم الله تعالى الحفيظ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة هود، الآية: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سورة سبأ، الآية: ٢١].

والحفيظ سبحانه هو الذي يحفظ عباده من المهالك، ويقيهم مصارع الشّر، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحصي أقوالهم، ويعلم نيّاتهم، فلا تغيب عنه غائبة(٧٠).

ومن آثار معرفة الله تعالى بهذا الاسم في المراقبة الثقة بالله تعالى، والتوكّل عليه، والتأمّل في آيات حفظ الله تعالى له، وهذا كلّه يبعث على محبّة الله تعالى في

---

(٦٨) انظر: المرجع ذاته، ج٢، ص٣١٢.

(٦٩) انظر: المرجع ذاته، ج٢، ص٣١٣.

(٧٠) الأسماء والصفات، البيهقي، ج١، ص١٧٧.

القلب، كما أنّ مَن أيقن أنّ الله تعالى حفيظ لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة كان دائم المراقبة لله تعالى، والحرص على رضاه[٧١]، فيحفظ قلبه وجوارحه عن كلّ ما يغضب الله تعالى، فلا يغفل عن الطّاعات، ولا ينشغل بالمهلكات.

– العليم:

ورد في معنى اسم الله تعالى العليم أنّه:" ظاهر وكماله أن يحيط بكلّ شيء علمًا ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته، وهذا من حيث كثرة المعلومات، وهي لا نهاية لها، ثمّ يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف على أتمّ ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثمّ لا يكون مستفادًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه"[٧٢].

وقد وردت آيات عديدة في اسم الله تعالى العليم منها قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة، الآية٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المجادلة، الآية٧].

وتتمثّل آثار الإيمان بهذا الاسم في المراقبة أنّ مَن عرف أنّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، وأنّه يعلم السّر وأخفى، فيستحي من الله تعالى، ويلتزم بالطّاعات والأعمال الصّالحات، ويجتنب الشّهوات والمنكرات.

كما أنّ اسم الله تعالى العليم" ينمّي في نفس المسلم جانب المراقبة، فيراقب الله تعالى في سرّه وإعلانه، وقد أكّدت آيات كثيرة من القرآن الكريم على هذا الجانب،

---

(٧١) انظر: أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك الإنسان، طالب أبو سنينة، ص٥٠٧.

(٧٢) المقصد الأسنى، الغزاليّ، ص٨٦.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ [سورة النّحل، الآية١٩]....، فإذا تقرّرت هذه الحقيقة في النّفس الإنسانيّة انبعث عنها كلّ ما يرضي الله عزّ وجلّ"[٧٣].

- السّميع:

يأتي اسم الله تعالى السّميع على ثلاثة أوجه: يكون من وصف الذات بأنّ المسموعات لا تخفى عليه، فيكون من مدح الذات غير متعلّق بالمسموع، بخلاف السّامع الذي لا بدّ له من متعلّق بمسموع موجود في الحال، وقد يكون بمعنى المسمع غيره، وقد يكون بمعنى السّامع[٧٤].

وقد أثبتت آيات القرآن الكريم هذا الاسم لله تعالى، فقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٦].

وإيمان العبد باسم الله تعالى السّميع يدفعه إلى مراقبة الله تعالى في جميع أحواله، لعلمه أنّ الله تعالى يسمعه،" فيستحي من سمع الله تعالى له بحفظ لسانه، فلا يقول إلا خيرًا، وأن يستعمل نعمة السّمع التي وهبه الله إيّاها فيما يُرضي الله عزّ وجلّ، وخصوصًا في سماع كلام الله تعالى وذكره"[٧٥].

---

(٧٣) أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك الإنسان، طالب أبو سنينة، ص ص٤٩٦-٤٩٧.

(٧٤) انظر: اشتقاق أسماء الله، الزجاجي، ص ص٧٩-٨١.

(٧٥) أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك الإنسان، طالب أبو سنينة، ص٤٩٩.

– البصير:

ويُراد باسم الله تعالى البصير هو أنّه تعالى" مبصر للأشياء المبصرات مدرك لها، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سورة الأنعام، الآية١٠٣]"(٧٦).

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الاسم، فقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [سورة غافر، الآية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر، الآية: ٤٤].

وتكمن آثار معرفة هذا الاسم في المراقبة أنّ العبد" يعلم أنّه خلق له البصر، لينظر إلى الآيات، وإلى عجائب الملكوت والسّموات، فلا يكون نظره إلا عبرة...، وأن يعلم أنّه بمرأى من الله عزّ وجلّ ومسمع، فلا يستهين بنظره إليه، واطّلاعه عليه، ومَن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله، فقد استهان بنظر الله عزّ وجلّ، والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصّفة، فمّن قارف معصية، وهو يعلم أنّ الله عزّ وجلّ يراه فما أجسره وما أخسره، ومن ظنّ أنّ الله تعالى لا يراه فما أظلمه وأكفره"(٧٧).

– اللطيف:

يفيد معنى اللطيف في وصف الله تعالى أنّه" المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبّب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون، وهذا مثل قول الله تعالى:" **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**" [سورة الطلاق، الآية: ٣] "(٧٨).

---

(٧٦) اشتقاق أسماء الله، الزجاجي، ص٧١.

(٧٧) المقصد الأسنى، الغزاليّ، ص ص٩١-٩٢.

(٧٨) تفسير أسماء الله الحسنى، الزّجّاج، ص ص٤٤-٤٥.

وبمقتضى توحيد العبد لاسم الله اللطيف، فإنّه سوف يحثّه على التلطّف بالآخرين، والسّعي على اليتامى والمساكين، والوفاق بين المتخاصمين[٧٩].

– المحيط:

ويراد باسم الله تعالى المحيط هو أنّه" محيط بالأشياء كلّها؛ لأنّها تحت قدرته، لا يمكن شيئًا منها الخروج عن إرادته فيه، ولا يمتنع عليه منها شيء"[٨٠].

وقد أشار الطبريّ (ت٣١٠هـ) في تفسيره إلى أنّ اسم الله تعالى المحيط يعني أنّه بكلّ شيء ممّا خلق محيط علمًا بجميعه، وقدرة عليه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾[سورة فصلت، الآية: ٥٤][٨١].

وقد فسّر قوله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩] إلى أنّه تعالى جامعهم، وسيحل بهم عقوبته[٨٢]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[سورة الطلاق، الآية: ١٢] أنّ الله تعالى محيط بعلمه بكلّ شيء من خلقه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[٨٣].

واستشعار العبد لاسم الله تعالى المحيط يجعله في دائرة المراقبة على الدّوام، وأنّ الله تعالى محيط علمًا بكل حركاته وسكناته، فيتوجّه إليه سبحانه في علانيّته وسرّه، وظاهره وباطنه، فينصرف إلى صالح الأعمال، ويبتعد عن السيء منها، فيستقيم خلقه، ويسمو بإيمانه.

---

(٧٩) أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، محمود الرضواني، ج٢، ص٥٦.

(٨٠) اشتقاق أسماء الله، الزجاجي، ص٤٩.

(٨١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبريّ ، ج٢١، ص٤٩٥.

(٨٢) انظر: المصدر ذاته، ج١، ص٣٥٦.

(٨٣) انظر: المصدر ذاته، ج٢٣، ص٤٧٢.

– الكبير:

ويراد باسمه تعالى الكبير كبر القدرة(٨٤)، والعظيم الجليل(٨٥)، والكبير سبحانه هو العظيم في كل شيء، عظمته عظمة مطلقة، وهو الذي كبر وعلا في ذاته، وهو الكبير في أوصافه فلا سمي له ولا مثيل، ولا شبيه ولا نظير، وهو الكبير في أفعاله فعظمة الخلق تشهد بكماله وجلاله، فهو سبحانه الكبير الموصوف بالجلال وعظم الشأن، وهو المنفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن كل من سواه فله جميع أنواع العلو المعروفة بين السلف(٨٦).

وورد اسم الله تعالى الكبير في قوله سبحانه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سورة سبأ، الآية٢٣].

ويتجلى أثر اسم الله تعالى الكبير على سلوك العبد في توحيد الله بالعبودية، وأن يخلع عن نفسه أوصاف الربوبية، ولا ينازع ربه أو يتشبه به في الكبرياء والفوقية، فيرى ضآلة نفسه، وإذا أخذته العزة بأنه الكبير يتذكر أن الله تعالى متوحّد في اسمه ووصفه؛ وأنه الكبير الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك(٨٧).

---

(٨٤) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزّجّاج، ص٤٨.

(٨٥) انظر: اشتقاق أسماء الله، الزجاجي، ص١٦٨.

(٨٦) انظر: أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، محمود الرضواني، ج٢، ص٩٤.

(٨٧) انظر: أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، محمود الرضواني، ج٢، ص٩٨.

ثالثًا: تدبّر القرآن الكريم:

كما أمرنا الله تعالى بالنّظر في آياته الكونيّة لمعرفته سبحانه، فقد حثّنا تعالى أيضًا على تدبّر آيات الله تعالى القرآنية؛ لأنّه طريق يوصل إلى معرفة الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

ويُقصد بتدبّر القرآن الكريم" النّظر والتوصّل إلى مغزى الآيات القرآنيّة ومقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه، عن طريق إعمال الفكر والتأمل وبذل الجهد الذهنيّ في فهم الآيات"(٨٨).

يقول الزركشيّ (ت٧٩٤هـ): " فالقرآن كله لم يُنزله تعالى إلا ليُفقَه، ويعلم، ويفهم، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون؛ ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب"(٨٩).

والهدف من تدبّر القرآن الكريم هو الانتفاع بتلك المعاني بخشوع القلب عند مواعظه، وامتثاله لأوامر الله تعالى؛ لأنّ القرآن الكريم له مقاصد ومرام جاء لتحقيقها في حياة الأفراد والمجتمعات، والتدبّر في الآيات القرآنيّة مرحلة تتبعها التّطبيق والعمل، فالإسلام لا يفصل بين العلم والعمل(٩٠).

قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢].

---

(٨٨) تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، رقية العلواني، ص١٠.

(٨٩) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج٢، ص١٤٥.

(٩٠) انظر: تدبر القرآن الكريم، رقية العلواني، ص١٠، ص١٢.

وممّا ورد في تفسير هذه الآية الكريمة أنّه" يأمر تعالى بتدبّر كتابه، وهو التأمّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازمه؛ ذلك فإنّ تدبّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلّ خير، وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته، فإنّه يعرِّف بالربّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزّه عنه من سمات النّقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلّما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحثّ عليه، وأخبر أنّه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة محمّد٢٤، الآية: ٢٤]"[٩١].

ويُعدّ تدبّر القرآن الكريم من الوسائل العظيمة التي تزيد الإيمان، وتقوي المراقبة؛ لأنّ الغاية من تدبّره هو الانتفاع بمقاصده بما يعود على الأفراد والمجتمعات بالسّعادة في الدّارين، خيرًا وصلاحًا في الحياة الدّنيا، وأجرًا وثوابًا في الحياة الآخرة.

يقول ابن تيمية في هذا الإطار:" ومن المعلوم أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام اللّه الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم"[٩٢].

---

(٩١) تفسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٨٩.

(٩٢) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ج٢، ص٤.

وانطلاقًا من ذلك، فإنّ التدبّر من أعظم الطرق للارتقاء بالفرد روحيًّا وسلوكيًّا وأخلاقيًّا ونفسيًّا، كما أنّه يهدي للتي هي أقوم في كلّ صغيرة وكبيرة، ويقدّم الأصوب في تهذيب السّلوك والمشاعر الإنسانيّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٩]، وهو محور الارتقاء بالرّوح، وتزكيّة النّفس، وتنقيتها من كلّ ما يبعدها عن الله تعالى(٩٣).

ويحقّق هذا التدّبر استشعار القلب مراقبة الله تعالى في الأعمال والأقوال ظاهرها وباطنها، فيراعي المسلم فيها مرضاة الله تعالى، ويبتعد بها عن مساخط الله تعالى، فكلّما تدبّر كتاب الله العزيز، يستحضر مراقبة الله تعالى، ويداوم عليها، ويرسّخها في قلبه.

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الحديد، الآية: ١٦]، أي: ألم يأنِ للمؤمنين أن تلين قلوبهم عند ذكر الله تعالى والموعظة وسماع القرآن، فيفهمونه وينقادون له، ويسمعون له ويطيعونه(٩٤).

فيحثّنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة على الاجتهاد على خشوع القلب له سبحانه، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهيّة والأحكام الشرعيّة كلّ وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، فينقادوا لأوامره وزواجره، فالقلوب تحتاج في كلّ وقت التّذكير بما أنزله الله تعالى، والمداومة عليه؛ لأنّ الغفلة عن ذلك سبب لقسوة القلب، واضمحلال الإيمان، وضعف المراقبة(٩٥).

---

(٩٣) انظر: تدبر القرآن الكريم، رقية العلواني، ص٢١، ص٢٤.

(٩٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٨، ص١٩.

(٩٥) انظر: تفسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٤٠.

وصفوة القول، فإنّ تدبّر القرآن الكريم يُعدّ وسيلة لتثبيت الإيمان في النّفس البشريّة، وتقويّة المراقبة الإلهيّة، وبخاصّة في ما يورده من قصص الأنبياء عليهم السّلام مع أقوامهم، وما يرسمه من صور محبّبة للمؤمنين وصفاتهم، ويظلّ القرآن الكريم يكرّر هذه التّوجيهات حتى ترسخ في النّفس، وحتى يصبح القلب مستحضرًا عظمة الله تعالى كأنّه يراه، فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، فيرزقه الله الطّمأنينة والسّعادة في الدّنيا، ويمنحه في الآخرة جنّته ورضوانه(٩٦).

الخاتمة

يمكن تلخيص النّتائج التي تمّ الوصول إليها من خلال هذا البحث بما يأتي:

أولاً: يدلّ المعنى الاصطلاحيّ للمراقبة على استشعار مراقبة العبد لله تعالى في السر والعلن، كما أنّ معنى الإحسان إذا اقترن بالإسلام والإيمان، فإنّه يشير إلى كمال مراقبة الله تعالى.

ثانيًا: تكمن حقيقة المراقبة في مراقبة قلب العبد لله تعالى الرّقيب، وانصرافه إليه، واستدامته العلم بأنّه عزّ وجلّ مطلع على ظاهره وباطنه، ورقيب على أعماله.

ثالثًا: تنقسم درجات المراقبة إلى خمسة أقسام: درجة الحياء من الله تعالى التي توجب صيانة الظاهر والباطن، ودرجة تعظيم الله تعالى وإجلاله، فكلّما ازداد العبد قربًا من الله تعالى ازداد تعظيمًا له، فلا يبتغي سوى مرضاته، ويصبح خُلُقه جاريًا فيه دون تكلّف، ودرجتا الخوف من الله تعالى ومحبته، التي بها يصبح العبد من المقرّبين عند الله تعالى، ودرجة رجائه التي تظهر المراقبة في جانب الطاعات التي يُرجى قبولها، وجانب المعاصي التي يُرجى مغفرتها.

---

(٩٦) انظر: العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، عثمان ضميرية، ص ص٦١-٦٢.

رابعًا: ترتبط المراقبة ارتباطًا وثيقًا بالإيمان بالله تعالى، فكلّما زاد الإيمان زادت المراقبة، وكلّما ضعف الإيمان ضعفت المراقبة، فالإيمان بالله تعالى يورث المراقبة الصّحيحة ؛ لأنّه يقود العبد إلى محبّة الله عزّ وجلّ وخشيته.

خامسًا: إنّ معرفة العبد بكمال الله تعالى من خلال التفكّر في آياته الكونيّة والقرآنيّة ومعاني أسمائه الحسنى يرسّخ الإيمان في النّفس، ويقوي المراقبة في القلب، فينضبط بذلك سلوك الأفراد والمجتمعات، وتنتظم حياتهم، ويستقيم معاشهم، ويسعدوا في مآلهم.

المصادر والمراجع

[١] أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانيّة، د. أحمد حقي، سلسلة كتاب دعوة الحقّ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة الثالثة والعشرون، العدد٢٨٨ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

[٢] أثر الإيمان في تحصين الأمّة الإسلاميّة ضد الأفكار الهدّامة، عبد الله الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

[٣] أحكام القرآن، محمّد بن عبد الله (ابن العربيّ)، دار الكتب العلمية.

[٤] أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنّة، د. محمود عبد الرزاق الرّضوانيّ، ط١ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

[٥] أسماء الله الحسنى وأثرها في سلوك الإنسان، طالب أبو سنينة، دار المحبة، دمشق، دار آية، بيروت، ط١ ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

[٦] الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، ط١.

[٧] اشتقاق أسماء الله، عبد الرّحمن الزّجّاجيّ، تحقيق د. عبد الحسين المبارك، البصرة، العراق، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

[٨] أعلام السنّة المشهورة لاعتقاد الطائفة النّاجية المنصورة، حافظ بن أحمد حكميّ، تحقيق حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، ١٤٢٢هـ.

[٩] إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

[١٠] الإيمان بالله وأثره في الحياة، د.عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

[١١] البرهان في علوم القرآن، محمد الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

[١٢] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المكتبة العلمية، بيروت.

[١٣] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[١٤] تفسير أسماء الله الحسنى، إبراهيم الزّجّاج، تحقيق أحمد الدّقاق، دار المأمون للتّراث، دمشق، بيروت، ط٤، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

[١٥] تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، رقية العلواني، مؤسسة رأس الخيمة للقرآن الكريم وعلومه، ط٢، جائزة رأس الخيمة للقرآن الكريم، الدورة السادسة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

[١٦] التعريفات علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم البياري، دار الكتب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.

[١٧] تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

[١٨] تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن ابن معلا، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

[١٩] جامع البيان في تأويل القرآن، محمّد بن جرير الطبريّ، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[٢٠] الجامع الصّحيح، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٢١] الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

[٢٢] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٢٣] السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

[٢٤] سنن الترمذيّ، محمّد بن عيسى التّرمذيّ، تحقيق أحمد محمّد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٢٥] شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

[٢٦] شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز الحنفي، حققها وراجعها جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط٨، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

[٢٧] الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، يناير ١٩٩٥م.

[٢٨] العقيدة الإسلامية: الإلهيات والنبوات، أ.د. أحمد معاذ حقي، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

[٢٩] العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم: المنهج والأركان والخصائص، د.عثمان ضميرية، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد٢٤٧، السنة ٢٥، ١٤٣٢هـ.

[٣٠] عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، د. محمد الملكاوي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

[٣١] فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، دار الفكر.

[٣٢] الكلّيات، أيوب الكفويّ، تحقيق عدنان درويش ومحمّد المصريّ، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

[٣٣] لسان العرب، محمد بن منظور، دار صادر، بيروت، ط١.

[٣٤] مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

[٣٥] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

[٣٦] المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

[٣٧] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السّلام هارون، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

[٣٨] مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/١٩٨٠م.

[٣٩] المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، محمد بن محمد الغزالي، تحقيق بسام الجابي، الجفان والجابي، قبرص، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

[٤٠] الملل والنحل، محمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

[٤١] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إعداد مجموعة من المختصين، دار الوسيلة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

Impact of Belief in Allah in Strengthening Observation an Analytical Doctrinal Study

Dr. Ibrahim Mohammed Khalid Burgan
Associate Professor of Creed
Faculty of Sharia, Department of the fundamentals of religion University of Jordan

Abstract. This research shows the impact of belief in Allah in strengthening the value of observation. This is done through the linguistic definition of both belief and observation, the technical definition given by ahl al-sunnahwa al-jama'ah.

The research highlights the reality of belief in Allah and that of observation, and five of the degrees of observation, namely shyness, exaltation, love, fear of Allah and hope.

The research also discusses the relation between belief in Allah and observation, and its impact in reflection in the universe, in the magnificent Names, and the Qur'an.

Of the main results of the present research are: firm observation of Allah in hearts directs and purifies behavior of individuals, societies in all fields of life and faith, it also controls their behavior with the Creator and others.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (١١)، العدد (٢)، ص ص ٧٦١-٨٢٩ (ربيع ثاني ١٤٣٩هـ/ديسمبر ٢٠١٧م)

"بشارات التوراة والإنجيل بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأثرها في بناء شخصية المسلم"

د. عامر سلامة فلاح الملاحمة
أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن

ملخص البحث. جاءت هذه الدراسة للبشارات الواردة بنبوته صلى الله عليه وسلم في العهدين، ولأثرها في بناء شخصية المسلم، فقد تضمنت تلك البشارات وصفاً لشخصه صلى الله عليه وسلم، فذكرت بعض أخلاقه، ومنها: ذاكراً لله، رئيس السلام، ليس بفظ، لا يصخب، لا يعتدي، داع إلى الحق، وغيرها. ويسعى البحث إلى دراسة بعض تلك البشارات وأثرها في شخصية المسلم في الجانب الإيماني، والأخلاقي، والفكري وغيرها.

واعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي مع بعض المقارنات، وكان من أهم نتائج البحث: علم أهل الكتاب بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بصورة لا تحتمل الشك، كما أن الشخصية التي بشّرت بها الكتب السماوية شخصية معصومة، وفاضلة، وناضجة وفق مقاييس علم النفس وسلوك الشخصية، وبمقارنتها بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم نجد أنها تنطبق عليها بلا أدنى شك. وفي ذلك عزة للمؤمن بدينه ونبيّه، والتأكيد على الجانب الخلقي في الإسلام كما ذكره الأنبياء عليهم السلام من قبل. كما بيّنت أن رسالة الإسلام هي الرسالة العالمية الخالدة التي تثبت إلى الأبد، وتُرشد إلى الحق، وتُقيم ملكوت الله في الأرض، وهذا كله له أكبر على شخصية المسلم.

وبذلك تُرد مزاعم أعداء الإسلام وخاصةً في الآونة الأخيرة والمتمثلة بحملة العداء تجاه رسول الله عليه الصلاة والسلام، من خلال رسم الصور المسيئة، وغير ذلك في محاولة تشويه صورته، فيقول لهم المسلم: ارسموا له صورة من خلال ما ورد عندكم من صفاته.

الكلمات المفتاحية: البشارات، التوراة، الإنجيل، أهل الكتاب.